



يوميات النزوح من الرقة: أربعة أيام في حراسة سيارة مفخخة

إعداد: ملكة العائد.

كاتبة وصحافية من الرقة لها عدد من المواد المنشورة بالاسم المستعار «فرات الصافي».



معهد العالم للدراسات
في أسئلة الواقع وإجاباته

THE WORLD INSTITUTE

www.alaalam.org

قلت: لا بدّ أنه قصف الطيران. كانت بعض أجزاء الدرج مكسورة، وأمام باب البيت، تهدمت جدران بيت الدرج تماماً. على اليمين، بعض قشور البرتقال اليابسة، وفي منتصف الفسحة أطلت النظرفي زهرة حمراء رقيقة كانت تنهض من شق في البلاط.

كان هذا حلمًا، أو كابوساً بارداً غير مفرع يذكّر بمشاهد من "ذهب مع الريح".

يوم الخروج

يشبه يوم خروجنا من الرقة يوم القيامة، حسب وصف القرآن؛ الناس سكارى، وما هم بسكارى. في ذلك اليوم سرت إشاعة انفجار سد الفرات. الذهول مرعب، ومكبرات الصوت في الشوارع، والجوامع، أُنذرت الناس من موت مقبل بعد ربع ساعة إذا لم يخرجوا من المدينة. بدأ سباق الخروج في سيارات تزاحمت واصطدمت ببعضها. نساء نسيت خوفها من الحسبة وخرجن بثياب البيت، وبالبيجامات. من يملك سيارة تحرك فوراً، ومن لا يملك سيارة حاول التعلق بأي سيارة مارة. الصراخ يأتي من كل الاتجاهات. امرأة حملت خوفها أثناء الهروب، لكنها نسيت أحد أولادها، فصرخت "مين صاحب المروة يجيبلي ابني".

بدأ السباق في اتجاه شمال المدينة في الطريق إلى الريف. هنالك سيارة نفذ منها البنزين. نزل السائق بسرعة إلى "بسطة بنزين" لم يجد صاحبها، فكسر القفل وملاً خزان السيارة وتحرك. رجال يركضون بذعر ممسكين بأيدي أطفالهم بحثاً عن سيارة تنقلهم.

بعد ساعة من خروجنا، قطعنا مسافة تقارب 35 كيلومتراً، وفي ظننا أن مياه السد لن تصل إلى هذا المكان. بعض السيارات تابعت إلى مناطق أبعد من تلك المسافة، ووصلوا حتى آخر حاجز لـ "تنظيم الدولة"، أو داعش، أي على تماس مع القوات الكردية، أو "قوات سوريا الديمقراطية". الفاصل بين القوتين كان العدد الكبير جداً من السيارات، والغضب الذي عصف بالناس في لحظات رعبهم. الغضب والخوف على حياتهم وأولادهم جعلهم يتجاوزون خوفهم من عناصر داعش. كانوا يصرخون مطالبين بفتح الحاجز "رح نغرق بالمياه.. بدنا نعبّر"، فسمح الحاجز لكثير من السيارات بالعبور حتى ساعة معينة.

يومها، سرت إشاعة تقول إن الحاجز سمح للسيارات بالعبور إلى "بلاد الكفر" بشكل مقصود، وليس رافة بالناس، لأن "أبو بكر البغدادي" عبر مع جموع الناس.

بجوار المفخخة

لم نكن ممن عبروا حواجز داعش في ذلك اليوم. ذهبنا إلى قرية "كُش" التي كانت لا تزال تحت سيطرة التنظيم في الريف الشمالي. وصلنا إلى بيت لأحد الأقارب، فاستوقفنا رجل من القرية ليخبرنا أن أصحاب البيت غادروا لأن عناصر من داعش أوقفوا سيارة مفخخة في دكان ملاصق للبيت! سمعت ذلك، ولم أسمع. فقدت أي شعور. وعندما نزلت من السيارة، حاولت التفكير بأي شيء فلم تستوطن أي فكرة في دماغي، حتى فكرة الخوف لم أشعر بها.

هذا الإحساس جرّبه وعرفته من قبل، عندما كانت طائرات النظام الأسدي تلقي البراميل المتفجرة بمظلات قبل عهد داعش، وقبل سيطرة التنظيم على مطار الطبقة. كنت أراقب البراميل تتدلى ببطء ويأخذها الهواء في اتجاهه، دون أن يعرف البرميل نفسه أين سيقع. كنت أنظر إلى الأعلى جامدة في مكاني، ليصبح قياس الزمن نفسياً فقط، دون أي امتداد.

كان لدينا خياران، إما أن نبقى بجوار المفخخة، أو العودة إلى الرقة المهددة بالغرق. ولأن بداية معركة الرقة كانت متوقعة في أول نيسان، حتى قبل إشاعة انهيار السد، وكان يفصلنا عن هذا الموعد خمسة أيام فقط، سألت من حولي ماذا نفعل؟ كان الخوف من حصار طويل للمدينة أكثر ما دفع معظم الناس للخروج، وليس الحرب في حد ذاتها، فالخوف من الموت البطيء في الحصار كان أقوى من الموت السريع بالصواريخ وقذائف الطائرات.

بعد نصف ساعة من سماع خبر المفخخة، اعتزلت التفكير حين قررنا البقاء. أصحاب البيت تركوه، ونحن بقينا لنحرس السيارة المفخخة، تحت سماء لا يفارقها الطيران، والسيارة إن لم تنفجر "ذاتياً" قد تكون هدفاً لمقذوف طائرة. وبحس بدائي، لزمنا الطرف الأبعد من البيت عن مكان المفخخة، حتى سمعنا بعد أربعة أيام صوت باب الدكان وهو يفتح. عندها كان عنصر من داعش

يبتعد بسيارة جيب مطلية بالوحل إلى أطراف القرية، أو أبعد. لم يحدث خلال تلك الأيام ما يخيف، ففي فكرة مجاورة سيارة مفخخة ما يكفي من الخوف.

سوق الشائعات

في يوم شائعة انفجار السد، انقطعت المياه والكهرباء. واستمر انقطاع الكهرباء لأيام، أما المياه فتتوافر ليوم، وتنقطع لأيام. مولدات الكهرباء كانت تعمل حتى المساء لساعات قليلة، نشحن فيها بطاريات الإضاءة، ونتابع أخبار مدينتنا من التلفزيون.

ولعدة أيام، كان خبر انهيار السد الأبرز على الفضائيات. أما على الأرض فكانت الأحاديث تدور حول تفسير إشاعة انهيار السد، ومن الذي أطلقها. قيل إن داعش هو من ابتدع الإشاعة كي يتمكن بعض عناصره من الهروب مع جموع الناس دون أن يكونوا أهدافاً للطائرات. وقيل إن الأكراد أطلقوا الشائعة كي يخرج المدنيون من الرقة ويقصفوا "على راحتهم".

مضت أيام دون أن تصدق الإشاعة، ودون أن تنطلق معركة المدينة في أوائل نيسان، فبدأ معظم الناس بالعودة إلى بيوتهم في الرقة. بعض الناس اشتروا خيماً ونصبوها في الأراضي الزراعية. يذهبون إلى الرقة عند هدوء القصف، ويعودون إلى الخيمة عندما يشتد قصف الطائرات على المدينة. ومن كان يمتلك بيتاً في الريف استقر فيه.

على طرفي القناة

القرية التي لجأنا إليها كانت تحت سيطرة داعش، دون وجود ظاهري لعناصره. كانت سيارة الحسبة تزورنا بسرعة وتغادر بسرعة. وما سمعناه من الأهالي أن عدد عناصر داعش في القرية ثلاثة فقط "يرابطون"، حسب التعبير المستخدم من قبل التنظيم، عند قناة الري الآتية من بحيرة سد الفرات، أي في الحد الغربي للقرية. وتفصلهم عن الطرف الآخر الذي يتواجد فيه الأكراد مسافة عشر دقائق مشياً (حوالي كيلومتر واحد)، وهم على هذه الحال منذ ثلاثة أشهر. ولأن حالة الهدوء على طرفي القناة استمرت لأشهر، كان أهل القرية مقتنعين

أن قريتهم ستسقط تلقائياً في يد الأكراد قبل أن يتابعوا طريقهم إلى الرقة من الجهة الغربية. ولذلك لم يخافوا من هدير الطائرات المستمر فوق القرية نهراً وليلاً، فالطائرات لم تقصف هنا سوى الجسرين الموجودين فيها، من ضمن غارات استهدفت كل الجسور في الرقة وريفها.

الحاووز المفخخ

بقينا على هذه الحال عشرين يوماً. ومما لا أنساه حركة أحد عناصر التنظيم وهو يصعد إلى "حاووز المي". كان العنصر يستخدم منظاراً غريب الشكل لرصد الحركة في محيط القرية. وما سمعناه من أهل القرية أن الحاووز كان مفخخاً. صوت الطائرات المتواصل هنا اعتيادي وليس مخيفاً، على عكس ما عرفته في الرقة. فالصوت هناك كان يعني القصف بالتأكيد. أما احتمال القصف هنا فكان ضعيفاً، إذا استثنينا أشباح الذكريات. النوم العميق يزورني في الصباح، بعد دقائق متفرقة متباعدة من نوم متقطع مرهق.

في أوقات الصحو، كان يتبادر إلى ذهني عندما أرى مدى كثافة الطيران وحركته المستمرة أن هذه المعركة إما وهمية ضد عدو وهمي، أو أن هذا العدو الموجهة ضده كل قوى العالم لا توجد وسيلة أكيدة للقضاء عليه، أو حتى لتحجيمه.

معركة أول نيسان

بدأ الترقب في بداية نيسان الماضي: ماذا سيحدث؟ ومتى ستبدأ المعركة؟ كنا نسمع في نشرات الأخبار تفاصيل عن معارك في الطبقة، ومحاولة السيطرة الكاملة على السد، وأن الخوف من حالة السد هو ما أحرّ المعركة. سمعنا أيضاً أن المناطق الشرقية من ريف الرقة قد تمت السيطرة عليها بشكل سريع من قبل "قوات النخبة".

لم يكن أهل هذه المناطق ممن تخلصوا من سيطرة داعش راضين عن الأكراد. تحدثوا عن أعمال السلب والنهب، والضغط على الشباب لتجنيدهم في "قسد". سكان المناطق الذين ما زالوا تحت سيطرة التنظيم لم يصدقوا هذه الأخبار، واعتبروها مجرد إشاعات.

نحن في منتصف شهر نيسان، ومعركة السيطرة على الرقة لم تبدأ. لكن

الضربات الجوية لطيران التحالف تصاعدت منذ أواخر آذار، وأصبح القصف اليومي يستهدف الجسور والمباني الحكومية، خاصة. مات مئات المدنيين في الشوارع والبيوت القريبة من مراكز غارات الطيران. والآن بدأ تدمير البنية التحتية للمدينة بشكل كامل، وبدأت معالمها تتغير. وبعد أن كانت الأماكن المدمرة مجرد ندوب في وجه المدينة، أصبح الدمار واضحاً، في كل شارع في المدينة تقريباً. ومع ازدياد التدمير، تنامي خوف الناس من طائرات التحالف. في بدايات تشكيل التحالف ضد داعش، كانت الضربات الجوية دقيقة، ولم تسجل إصابات بين المدنيين، ولذلك لم يشعر الناس بالخوف من قصفهم. كان الخوف من الطيران الروسي، ومن طيران النظام، ومن القصف العشوائي الذي يصيب المدنيين بدقة تصل إلى درجة وصفه بـ"العامد".

مع ذلك، أصبح صوت الطائرات في الأشهر الأخيرة كابوساً بالنسبة للجميع، ومصدر قلق وإرهاق يكاد يشكل معظم تفاصيل الحياة اليومية لسكان الرقة.

جبهة القناة

كنا نسمع أصوات القصف الآتية من الطبقة. الأبواب والشبابيك تهتز مع كل ضربة. وبعد مضي نحو أسبوعين على وجودنا في القرية، بدأ أن هدنة جبهة القناة المائية انتهت، وأصبحنا نسمع أصوات قصف المدفعية بوضوح. كانت الأصوات قريبة، فقد رنا أنها في منطقة أقرب من الطبقة. فالصوت الجديد نسمعه صوتين متتاليين، الأول صوت انطلاق القذيفة، والثاني صوت انفجارها. كنا نترقب بخوف الأصوات المتتالية، ولا نعرف ماذا يجري بالضبط، وهل القصف ينطلق من القرية، أم موجهاً إليها؟ أحياناً، يتخلل القصف المدفعي صوت قصف طائرة. استمر ذلك حتى الصباح. وفي اليوم التالي، كان أهل القرية يتحدثون عن هجوم التنظيم على الأكراد. الرواية تقول إن حوالي 18 عنصراً من التنظيم عبروا القناة لينفذوا عملية انتحارية، لكن الطائرات قصفتهم قبل أن يصلوا إلى موقع الأكراد.

استغربت، وسألت من أين لهم هذه المعلومات، وكيف حددوا عدد العناصر إذا كانوا في الطرف الثاني.

في المساء، كالعادة، يأتي بعض أهالي القرية ممن لا يملكون مولدات إلى

البيت، حيث نسكرن، ليشحنوا بطاريات الإضاءة، ويتابعوا نشرات الأخبار على التلفزيون. كانت هذه فرصة للحديث عما جرى البارحة من قصف. تحدث أحدهم أن مصدر القصف كله من الأراضي الزراعية عند طرف القرية المحاذي للقناة، حيث دخل عناصر من التنظيم إلى هناك وقصفوا مواقع الأكراد بالمدفعية، تمهيداً لعبور القناة من أنفاق تحت قناة الماء، فالجسر دمره قصف الطيران في وقت سابق. كانوا يتحدثون عن هذا الهجوم وأنا أحدث نفسي: كلامهم أقرب إلى الخيال. كيف يعرفون هذه التفاصيل، وهل توجد حرب فعلاً بين التنظيم من جهة، والأكراد وداعميهم من جهة ثانية، أم أنها مجرد مسرحية؟ كيف يحصي التحالف قتلى التنظيم، وكيف يعرف من قتل، وكم قتل، خاصة أن القصف يحول الأرض وما عليها إلى رماد. سألت أحدهم كيف عرفت ما جرى، وكيف حددتم أعداد القتلى؟ فقال إن بعض العناصر لم يصابوا، وعادوا إلى القرية، وطلبوا من راع هناك تحت التهديد أن يذهب بأغنامه وحماره ليرعى عند مكان الجثث، حيث أن الرعاة لا يكونون بالعادة هدفاً للأكراد. وهكذا تمكن الراعي من نقل الجثث إلى داخل القرية. ثم حملهم من تبقى من عناصر داعش في سيارة وأخذوهم إلى الرقة.

التحليل السياسي

معظم الناس في القرية، وفي الرقة، كانوا على قناعة أن الأكراد تابعين للنظام، وأنهم عندما يستعيدونها من التنظيم ستسلم للنظام. هذه كانت قناعتهم. ولذلك ارتبكوا عندما قصف الأمريكان مطار الشعيرات بالصواريخ، لكنهم برروا الضربة بأنها كانت مجرد مسرحية، كون النظام كان على علم مسبق بها.

أيضاً، يرى محلل سياسي في القرية أن ترامب كان يحاول أن يقنع الأمريكيين أنه وبوتين ليسا على وفاق، وأن لا دخل لبوتين بنجاحه في الانتخابات. هو تحليل التقطه أحدهم من التلفزيون وصاغه بطريقته.

في المجمل، الناس يريدون أن تنتهي الحرب بأي شكل. يسبون جميع الأطراف، من النظام إلى داعش، وما بينهما. يريدون طرفاً ينهي الحرب وسنوات القصف والخوف.

أكراد يشبهوننا

أمام البيت في القرية فسحة كبيرة محاطة بسور. كنت أخرج لأمشي فيها ملتزمة بتنبيه أصحاب البيت بعدم الاقتراب من الباب الرئيسي للسور، لأنه مكشوف على الشارع، ويمكن أن تراني الحسبة فجأة. كنت أنظر إلى الطرف البعيد من القرية من فتحات السور، حيث من المفترض أن يتواجد الأكراد. الأطفال في البيت يلحقوني. كانوا يقولون إن الأكراد هناك خلف بيت عمنا عند طرف القرية. كنا في السابق نذهب إلى هناك في الربيع عند أطراف القناة نحش النباتات البرية (نقطف النباتات البرية). الآن أطراف القناة مليئة بالألغام. قال أحدهم: عمي يرى الأكراد من سطح البيت. كنا نتحدث عن كائن مجهول خلف القناة، غير الكائن الأسود الذي نعيش معه الآن. كنت أسألهم أحياناً، هل رأيتم الأكراد، هل يشبهوننا، أم هم مخلوقات من المريخ؟ فيقولون: لا، لم نرهم. كنت أقول لهم مازحة هم مخلوقات صفراء فضائية، وهم أصدقاء للطائرات. عندها، يشطح خيالهم الطفولي، فيسألني أحدهم إن كان الأكراد يحبون الألوان، فأقول إن الأكراد الأرضيين مثلنا، أو يشبهوننا. أما الأكراد الفضائيين فلا يحبون إلا اللون الأصفر.



مقاتلون أكراد على أطراف مدينة الرقة

نزوح مضاعف

في منتصف شهر نيسان، أي بعد مضي عشرين يوماً على وصولنا إلى "كُش"، وبعد الهجوم الذي قام به عناصر التنظيم بحوالي أسبوع، تجدد القصف المدفعي على القرية. كان عنيفاً، والفاصل الزمني بين كل قذيفتين متقارباً تهتز له الأرض أحياناً، فأترك فراشي وأركض إلى الممر المحاط بالجدران، على الرغم من إدراكي أن هذا لن يفيد إذا أصابت قذيفة أحد الجدران، لكنني كنت أكرر الأمر نفسه في كل مرة. كنت أمشي على طول الممر جيئةً وذهاباً، وعندما تخف وتيرة القصف أعود لأتدفأ، فأجد أن كل من في المنزل يجلس في فراشه. بقينا على هذه الحال حتى الصباح. وعندما انتهى القصف المدفعي بعد حوالي نصف ساعة، بدأت قيامة الطائرات في الثامنة صباحاً، وهذه المرة لم تكن عابرة إلى الرقة. لم أسمع مثل هذا الصوت منذ أن بدأت الحرب. الطائرات تحلق فوق البيوت تماماً، حتى تكاد تلامسها، لدرجة أن الناس الذين كانوا في الخارج ينبطحون كلما مرت، خاصة عندما تخترق جدار الصوت. كانت تبتعد ثم تعود، وتنزل لدرجة أننا نتخيل أن قذيفها بحجر يمكن أن يصيبها، لكنها لم تقصف أي هدف في القرية. نظرت من النافذة عندما سمعت صرخاً. كان كل من في القرية يركض، والنساء والأطفال يصرخون. عاد صاحب المنزل مستفسراً عما حدث ليلة البارحة، وعندما فاجأته الطائرة، صرخ من الخارج طالباً منا ركوب السيارة. كنا متأهبين من الذعر، فخرجنا نركض دون أن نحمل شيئاً. لبسنا أحذية ما على عجل، دون أن نميز ماذا لبسنا، وركبنا السيارة. كانت الطائرة فوقنا، والسيارة مسرعة للخروج من القرية، وكل من في القرية كان على هذه الحال. خرجوا بأي وسيلة، بعضهم يركض، وبعضهم ساق أغنامه على عجل وخرج. ابتعدنا مسافة حوالي خمسة كيلومترات في الأراضي الزراعية البعيدة عن مكان الاشتباكات، فرأينا ثلاث خيام نصيها بعض سكان القرية تحسباً لمثل هذا الطارئ.

خرج رجل من إحدى الخيام فرحب بنا. وفي خيمة صغيرة وجدنا امرأتين وعدداً من الأطفال نزحوا من ريف حماة. كانت إحداهن قد ولدت طفلة منذ أسبوع، ويبدو عليها التوتر والخوف على طفلتها المريضة، وهي تغير الكمادات الباردة

للطفلة وتنظر إلينا، قالت "أخاف من الطائرة.. أموت من الخوف من صوته.. صارلنا خمس سنين على هذه الحال بالخيم.. ننتقل من منطقة إلى أخرى.. اشتقنا لديرتنا". قالتها بحسرة. وأضافت "لأن أهلنا بالجيش الحر طلعنا من هناك. النظام يقصف مناطقنا دائماً، ولا يفرق بين صغير وكبير".

كانت الطائرة ما تزال تحوم ويعلو صوتهما عندما تقترب من القرية، فنصم آذاننا ونختلج في كل مرة. بعد قليل، غاب صوتهما لأكثر من نصف ساعة. يبدو أنني غفوت في هذه الفترة وأنا جالسة من شدة تعب. أدركت ذلك حين استيقظت مدعورة على صوت الغارة العنيفة الوحيدة خلال ذلك النهار. في تلك الأثناء، ذهب الرجال إلى البلدات المجاورة ليشتروا الخيام ولوازمها. غابوا عنا حوالي ساعتين في "المنصورة" القريبة من الطبقة ليشتروا، أو يستعيروا، خيماً. بدأ عدد الخيام يزداد شيئاً فشيئاً. قال أهل القرية "نهارين أو ثلاثة ونعود عندما يهدأ الوضع". كانوا متأكدين أن هذه الجهة لن تتحرك.

ومع غروب الشمس، اكتمل بناء الخيام، واستغل الناس هدوء الأجواء ليعودوا على عجل إلى القرية ويحضروا بعض الفرش والأغطية والمؤونة وأدوات للطبخ على قدر ما تتسع الخيمة.

نمنا الليلة الأولى في الخيمة متلاصقين، دون أن يقطع نومنا أي صوت. وفي الصباح، شربنا الشاي المعد على بابور الكازي جوربيعي معتدل. بعدها انشغل سكان المخيم بإكمال تجهيز الخيام. كانوا يحفرون الأرض حولها لمنع دخول مياه الأمطار، ويربطون في أطرافها أكياس مليئة بالتراب لتصبح ثقيلة أمام الريح. وقبل أن يكتمل ذلك، بدأ هطول المطر بغزارة شديدة، وأخذت الريح تعصف بالخيم، فأمسك كل واحد منا بجهة من الخيمة كي تصمد أمام الريح. بعضنا من الخارج، وآخرون من الداخل. أمسكت بعمود عند باب الخيمة محاولة إغلاق باب الخيمة برجلي من الأسفل، بينما أمسك الطرف العلوي بيدي، لكن الماء بدأ يسيل على طول يدي المرفوعة ليتسلل إلى جسدي ويصل حتى قدمي، قبل أن أنتبه إلى أن الماء بدأ يدلف من سقف الخيمة، فتركت الباب على عجل وطيوت أطراف الحصيرة الممدودة على الأرض، ونقلت الفرش والأغطية والخبز وكومتها فوق بعضها في منتصف الخيمة.

جلسنا في المنتصف فوق الأغراض مستسلمين. كانت ثيابي الوحيدة مبللة، فاكتفيت بنزع جواربي والجلوس مع البقية فوق كومة الأغراض منتظرين هدوء العاصفة.

في تلك الساعات، استغل داعش العاصفة فأدخل عشرات من عناصره إلى القرية. وما إن هدأت العاصفة حتى بدأنا نسمع أصوات القصف المدفعي.

رفيقتي في العاصفة

كنت مبللة بالماء والخوف في وسط مجهول ليس له أفق. أمي الثمانية ريفتي في رحلة الخوف والهروب لم تتوقف عن التسبيح والدعاء بالستر وحسن العاقبة. أكثر ما يؤلم في هذه الحرب معاناة كبار السن والأطفال، وما يختبرونه من مشاعر الخوف. منذ قليل، عندما عصفت الرياح بالخيمة، صرخت "مram"، ابنة العاشرة، وقد تراكب صوت الرعد مع ما تختزنه ذاكرتها من أصوات القصف والانفجارات، فاحتضنتها أمها بالعاطفة والمنطق "إنه مجرد مطر، مثل كل مرة، لكننا في خيمة هذه المرة، وليس في بيتنا. إنه مجرد مطر!".

استمر القصف المدفعي قرابة نصف ساعة. وبعد أن هدأ، عدنا، سكان المخيم، لإصلاح ما أفسدته العاصفة. أعدنا ربط الخيم وتثبيتها ونحن ننتزع أقدامنا من الوحل في كل خطوة. وعندما غربت الشمس التزمنا خيمنا. وكالعادة، تناولنا العشاء الجماعي، وقد أصبحنا عشرين شخصاً في خيمة. أكلنا ما نملكه من طعام يكفي آلات أجسادنا كي تقاوم البرد والخوف قبل الهروب التالي. كانت متعتنا الوحيدة القدرة على إعداد الشاي مرات كل يوم، لكننا انتبهنا لاحقاً إلى ضرورة اختصار عدد مرات هذه المتعة.

في اليوم التالي، سمحت الشمس بنشر ما ابتل من فرش وبطانيات، دون أن نغفل عن ترقب ما سيحدث، فمنذ أن هدأت مدفعية البارحة لم نسمع شيئاً يدل على وجود اشتباكات. الرجال تجمعوا في أعلى التلة ليراقبوا قريتهم ويفهموا سبب الهدوء، أوليتوقعوا ما سيجري. لم يستعملوا في كلامهم تسمية "قوات سوريا الديمقراطية"، كونها تسمية رسمية تقتصر على التصريحات، والمؤتمرات الرسمية على التلفزيون. التسمية الشعبية هي "الكراد" في كل مرة

يشيرون فيها إلى من يوجد خلف القناة. لم يكن لوجود مقاتلين عرب ضمن هذه القوات على ما يبدو أهمية تذكر، فالأكراد يتصدرون المشهد، ووجود المقاتلين العرب في "قسد" هامشي، فهم ليسوا أصحاب قضية، بل مجرد أرقام ضمن هذه التركيبة. حتى الرأي الشعبي كان يرى في هذا الوجود مجرد غطاء لشرعية القيادة الكردية ضمن مشهد التركيبة "الديموقراطية" للسيطرة لاحقاً على الأراضي المنتزعة من داعش، وللتفرد بحكمها وقيادتها، ووسمها بالطابع الكردي البعيد عن الديموقراطية المفترضة في تسمية هذه القوات. عند الظهيرة، حلقت طائرتا أباتشي بشكل متقابل على علو منخفض. كانتا تطيران ببطء، فوق القرية. أكد بعض الرجال على التلة أن "قسد" يمدون جسراً حربياً على القناة بحماية الأباتشي. بعد ساعات، سمعنا صوت انفجار وحيد وقوي. وبعد أن انزاح الدخان والغبار، أدرك المتفرجون من أهل المخيم أن "حاووزالمي" اختفى من مشهد القرية. عندها، بدأنا بتربب بداية دخول الأكراد إلى القرية.

ليلاً، وبعد ثلاثة أيام على وجودنا في المخيم، عندما كنا نستعد للنوم، بدأ القصف. خبرتنا أشارت إلى أنه لم يكن مدفعياً، وليس قصف طائرات. كان مصدر القذائف الصاروخية قريباً، لأننا سمعنا صوت إطلاقها، وراقبنا مسارها فوق الخيم، ثم صوت انفجارها في مكان ما قريب. كنا نأمل أن تكون الجولات قليلة، لكن القصف استمر، ولم يعد في استطاعتنا أن نحصي عدد الضربات. من المؤكد أنها تجاوزت الخمسين. وفي كل مرة كنا نتوقع أن تسقط التالية فوقنا، في ظلام الليل حيث لا يفصلنا عن السماء سوى قماش الخيمة. التساؤلات المشتركة كانت: من هو العدو في هذه الحرب، وهل يوجد أحد يحارب من أجلنا، هنا، أو في أي مكان في سوريا؟ هل تهتم أي من الدول والتنظيمات المتصارعة بحقنا المهدور في أن نبقى أحياء؟

عني، كنت مصرة على "العيش" في هذا المخيم، أستهلك الوقت ويستهلكني في انتظار المنتصر الجديد. كنت أرتجف كالورقة، أحاول أن أثبت أطرافي دون أن أستطيع. اللغة المشتركة بين سكان الخيمة كانت نظرات الخوف بين كل صاروخين، ثم الصراخ لثوان في كل مرة ينطلق فيها الصاروخ، ثم الصمت

والخوف حين يهبط. لا نملك إلا أن نبقي في مكاننا. استمرت غيبوبة الخوف هذه أكثر من ساعتين، ثم بدأ تحليق الطائرات. كانت الطائرات تتناوب ذهاباً وإياباً. لا نعرف من أين تأتي، أو إلى أين تذهب، ترافقها طائرة تصوير تميزها من صوته الضخم. أدركنا ذلك في ما بعد، لكننا كنا نتوقع أن تقصف الطائرات في كل مرة تمر بها فوق مخيمنا الصغير. استمرت حالة الترقب حتى الصباح، دون قصف. علمنا، لاحقاً، أن الطائرات قصفت مكاتب بيع السيارات في الرقة. أما القصف على القرية فلم يكن حقيقياً. فمعظم الصواريخ سقطت في البساتين والأراضي الزراعية المحيطة بالقرية.

الخبز والماء

في اليوم التالي، اصطبحنا ببائع خبز أتى من بلدة مجاورة، فاشتري سكان كل خيمة ما أمكنهم من الخبز. الرجال أحضروا صهاريج ماء مملوءة من السواقي القريبة. هي سواق ترابية تستخدم لتصريف الماء الزائد عن حاجة السقي، وتتجمع فيها المياه من سواق أخرى إسمنتية قرب مخيمنا. لاحظنا منذ اليوم الأول لنا هنا انقطاع جريان الماء، الذي استمر عشرة أيام. كنا نملاً ما لدينا من أوان من هذه الصهاريج ماء أصفر تطفو على سطحه بعض الشوائب. طريقة تعقيم وتصفية المتوافرة كانت باستخدام حبوب دوائية أحضرناها معنا، وسبق أن استخدمناها في بيتنا في الرقة، لعدم ثقتنا بنظافة مياه الشرب. كنت أنظر إلى منظر الماء، ولا أستطيع شربه. لكنني بعد يومين استسلمت وشربت متجاوزة شعوري بالقرف من لونه.

روى الرجال أن هذه السواقي، أو المصارف، استخدمها عناصر داعش للاختباء فيها مثل خنادق الميدان في حربهم مع "الكراد". لاحقاً، روى بعضهم أنه شاهد جثثاً منتفخة لعناصر من داعش قرب هذه السواقي، وأكد أحدهم أنه رأى جثة في إحدى السواقي.

الأسود والأصفر

عصراً، قصفت طائرة أحد بيوت القرية. ركض بعض الشباب إلى التلة



نازحون من الرقة متجمعون للحصول على المياه

ليحددوا المكان. وبعد أن انقشع الدخان والغبار، حددوا مكان القصف في مدخل القرية. البيت اختفى تماماً.

في أماكن قريبة من القرية، كان بعض الشباب يتسلل كي يشاهد القرية، وربما كي ينقل معلومات للأكراد عند القناة. وحسب قول بعضهم، أن البيت قُصف في لحظة دخول عناصر من داعش بأسلحتهم، فأصبحوا جثثاً هامة تحت أنقاض البيت الذي لم يبق منه غير الدرج. ويبدو أن بيتين أو ثلاثة دُمرت بالطريقة نفسها.

هذا الحدث شغل أهل القرية لساعات، قبل أن يقعوا في حيرة من قصف مدفعي بدأ مع غروب الشمس، قصف كان يأتي من مكان يفترض أن التنظيم لا يزال يسيطر عليه ضمن أراضي القرية: هل يتبادل عناصر داعش القصف؟ شيئاً فشيئاً أصبحت أصوات القصف أقرب، وسقطت قذائف قرب خيامنا، ولأن الفاصل الزمني بين كل قذيفتين ضاق، كان لابد من الهروب إلى مكان أبعد. انتقل الخوف والصراخ بيننا كالعدوى، وعندما ركض أحدهم إلى سيارته هو

وعائلته وركبوا وأسرع فيهم وهو يصيح بالكل للهروب إلى قرية أبعد، بدأ سباق ركوب السيارات والجرارات الزراعية، للابتعاد عن القذائف التي كانت لاتزال تتساقط.

ركبنا على عجل إحدى السيارات، لكن الخوف جعل تلك اللحظات طويلة جداً. كنا نحاول الإسراع، غير أن الزمن اللازم للوصول إلى السيارة كان يبدو طويلاً ومبهماً.

سارت سيارتنا خلف سيارات انطلقت نحو جهة لا أعرفها، فأنا لست من أهل هذه المنطقة. انطلقت السيارات بمحاذاة أحد مصارف الماء الترابية. كانت الشمس قد غربت، واستطعنا أن نرى مشهد نبات الزل (القصب) في القناة العميقة على أضواء السيارات. الطريق ضيقة، وبالكاد يتسع عرضها لسيارة واحدة، وعلى طرفها الآخر ساتر ترابي عالٍ. كنا نبتعد عن مكان المخيم بسرعة، على وقع أصوات القذائف الذي أصبح بعيداً شيئاً ما، وأنا أراقب قناة الصرف العميقة التي سايرتها السيارة للحظات طويلة. كنت وكأنني أراقب مشهداً لست موجودة فيه، هل يعقل أن ما يحدث يحدث، وهل أنا موجودة داخل فيلم، أو أشاهد فيلماً؟ هل يعقل أن تسقط إحدى القذائف فوقنا قبل أن نبتعد مسافة كافية؟ ففي الموت، لا أحد يصدق موته. دائماً نحس أن الموت يمكن أن يصيب الآخرين، ولكنه بعيد عنا. في مثل هذه اللحظات، تحس أن الموت يلاحقك. تنكره وهو يحدق فيك.

هنا، توقفت السيارة، وأخرجتني من دوامة الأفكار المتلاطمة. لقد تعطلت قبل أن نقطع نصف المسافة إلى هدفنا الذي لا أعرفه. هل يعقل ما يحدث، تجاوزتنا إحدى السيارات، ثم عادت لتجر سيارتنا بحبل. جرتها لأمتار عدة، قبل أن ينقطع الحبل. وعندها تركنا صاحب السيارة وتابع سيره. حاول سائق سيارتنا تشغيلها بلا فائدة، إلى أن جاء جرار وسحب السيارة بحبل لمسافة لا بأس بها. في نهاية القناة، وصلنا إلى طريق إسفلتي، وعندما استدار الجرار ليسلك الطريق المسفلت، انقطع الحبل مرة أخرى ونحن لا نزال نساير القناة، فكادت سيارتنا أن تهوي في القناة، لو لم ترجع السيارة بسرعة إلى الوراء. بقينا في مكاننا وتابعنا بقية القافلة طريقها.

في تلك اللحظات، حل شعور آخر لدي مكان الخوف، أحسست أنني وحيدة، ليس لي أحد في هذه الدنيا. حلقي يؤلمني من شدة الشعور بالظلم وليس العطش، لماذا تهدر كرامتنا بهذه الطريقة، ولصالح من؟ ولماذا أمر بكل هذا؟ لماذا لا يوجد أحد تعنيه حياتي؟ لماذا لا أعامل كإنسان، وأسقط كرقم في هذه الحرب؟ هل وجودي في هذه البقعة من الأرض جعل من يديرون هذه الحرب يحولوني إلى كائن يصارع على عاتقه للبقاء حياً؟

تحت وصاية الوقت

التتابع السريع للأحداث لن يفسح لأي شعور أن يصل بك إلى العودة لصورتك الأولى كإنسان، فلا وقت للتوقف في سباق البقاء هذا. عادت سيارة كانت قد أوصلت بعض النازحين إلى المكان المقصود لتأخذنا. تركنا السيارة المعطلة وركبنا فيها. كنا آخر الواصلين، حين امتلأت الغرف بالناس، ولفظ البيت الفائض منهم خارجه. رحبت بنا صاحبة البيت العجوز، ودعت الجميع للدخول. وجود شخص يعود بسيارته ليساعدك، وبشاشة هذه السيدة المسنة وكلماتها الرقيقة، خففا خليط التوتر والخوف واليأس والظلم الذي جعلني لا أقوى على النزول من السيارة عند وصولنا، حتى جاء شخص وساعدني على ذلك. كنت في حالة من العصبية بحيث عجز دماغي عن إعطاء الأمر اللا إرادي لرجلي للنزول، فلم أعد أعرف أين أضع قدمي لأنزل. رحبت بنا السيدة وهي تبث فينا ثقتهما أن الله سيفرجهما. قالتها بهدوء وثقة. توزع سكان المخيم على البيوت المجاورة. كان الظلام يخيم على المكان، وحذرنا أصحاب البيت من تشغيل أي مصباح خارجاً، فقد كانت حركة الطيران كثيفة. تمددت في الفراش كما فعل حوالي ثلاثين شخصاً بين نساء وأطفال في هذه الغرفة. لم يكن بإمكاننا النوم، كنا نلتقط في الظلام أصوات الطائرات التي تذهب وتعود، ونسمع أصوات انطلاق القذائف الصاروخية بين كل ثانية وأخرى.

كانت وتيرة انطلاق القذائف متقاربة جداً، بحيث فقدت الإحساس بالزمن وأنا متكورة على نفسي في حالة من الخدر بسبب تداخل أصوات الطائرات والقذائف واهتزاز الأبواب والشبابيك، وإلحاح السؤال إلى أين سنذهب لو امتدت المعارك فجأة إلى هنا، وهل هذا المكان آمن؟

حدث ذلك في اليوم الرابع منذ خروجنا إلى المخيم. كانت مناطق سيطرة داعش عامة، وفي الرقة خاصة، مستثناة من أي مفاوضات كانت تجريها المعارضة مع النظام وداعميه، وكأن هذه المناطق قد عزلت سلفاً عن سوريا. كانوا يتجاهلون هذه المناطق وكأنها خالية من المدنيين. وجود داعش فيها جعلها مستباحة للجميع، ولا تحتاج لأي مبرر من أي دولة للتدخل بالقتل العشوائي، وبأي نوع من الأسلحة، فحجة مكافحة الإرهاب والقضاء على داعش هي رخصة غير مشروطة للقتل لجميع الدول والتنظيمات.

لا أعرف متى هدأت الأصوات، فنمت، أولم أنم. لم أستطع أن أحدد نومي من عدمه. أعرف أن شخصاً دخل من باب الغرفة وقال: حل الصباح، انهضوا لنذهب، القرية "تحررت".

حوالي الساعة صباحاً، عدنا كما جئنا على عجل إلى مخيمنا ونحن نترقب أن نعود إلى القرية بعد يومين أو ثلاثة على أبعد تقدير، بعد أن يتم تفكيك الألغام كما كان يعتقد الجميع.

علم "الكراد"

تأكد دخول الأكراد إلى القرية برفع "العلم الأصفر" المعروف رسمياً بعلم "قوات سوريا الديمقراطية"، وعلى الواقع "علم الكرد". كنا نشاهده من بعيد ونحن في المخيم وسط جهتين متحاربتين، حيث يقع مخيمنا في أرض منخفضة بالنسبة للقرى التي لاتزال تحت سيطرة التنظيم، لتشكل نصف دائرة تقريباً تحيط بالمخيم على مسافة حوالي ستة كيلومترات من القرية. كنا نسمع أن التنظيم جهز مدفعاً أعلى إحدى التلال. لاحقاً، قصفت طائرة المدفع قبل أن يبدأ عمله.

مضى اليوم الأول بعد "التحرير" كله، حتى ما قبل الغروب دون أي تحركات. ومع بدء غروب الشمس، بدأت مدفعية الأكراد بقصف القرى الواقعة خلف المخيم. كنت في هذه الأثناء أتمشى، وابتعدت مسافة مئة متر عن آخر خيمة تقع بعد خيمتنا. كنت قد سمعت الضربات السابقة، ولم أرجع. كانت في الجهة الأخرى، وبعيدة نسبياً، لكن قذيفة سقطت أمامي على مسافة قريبة على الطريق الترابي الذي يذهب إلى القرى المجاورة، فعدت راكضة نحو



مقاتل كردي من قوات سوريا الديمقراطية

المخيم، وسقطت قذيفة أخرى على الطريق نفسه بعد مضي خمس دقائق. أحد الرجال عاد ركضاً وهو يؤكد أن الأكراد سيتحركون باتجاه هذه القرى، بعد قصف تمهيدي، وأن علينا الابتعاد عن الطرق المؤدية إلى تلك القرى. أين سنذهب هذه المرة؟ هنالك شخص من القرية بنى بيته في أرض الزراعية بعيداً عن القرية، قريباً من مخيمنا. ولذلك ركض بعض سكان مخيمنا نحو البيت للاحتماء من احتمال سقوط القذائف فوق الخيم، فالبيت يبقى أفضل حماية من خيمة.

الدخان الأسود

خلال عشر دقائق، كان الجميع قد غادروا المخيم عدا بعض الرجال الذين فضلوا البقاء. وصلنا جميعاً إلى بيت "أبو علي"، وهو البيت الوحيد الموجود في هذه المنطقة، بالإضافة إلى بيت صغير يعود لابنه. كانت أمي تمشي ببطء شديد، فالطريق أرض زراعية مفلوحة ومزروعة تجعل المشي فيها صعباً جداً على سنواتها الثمانين. أمسكت بيدها، وباليدي الأخرى حملت كيس الأدوية وبطانية. وكلما نزلت ببقعة منخفضة كنت أسحبها سحباً لتتابع، والقذائف ما تزال تتساقط في مكان بعيد قريب. كنت أحثها على الإسراع، بعد أن سبقنا

الجميع، فتجيبني أنها لا تستطيع. بدت المسافة القصيرة أمامنا لا نهائية، وكانت تسري في جسدي قشعريرة كلما سقطت قذيفة جديدة، لأتمنى أن نصل ولا تسقط إحداها فوقنا. لم يكن بإمكانني الركض، فهذا سيزيد من توتري. عندها رأيت طفلاً في عمر السابعة يركض نحونا، قائلاً "خالة هاتي البطانية، خليني أساعدك". أخذ البطانية ومشى أمامنا. بقي هذا الطفل في ذاكرتي، وكلما كنت أراه لاحقاً كنت أقبله.. وأدعوه "يا بطل".

تجمعنا في غرف البيت، وأمضينا ليلتنا هذه أيضاً على أصوات طائرات الاستطلاع، والطائرات الحربية، وأصوات القذائف. وبين حين وآخر نسمع أصوات رصاص، بما يوحي أن هنالك اشتباكات قريبة تجري. كان زجاج النافذة يلمع كل حين إثر انفجار قذائف، أو كلما قصفت الطائرة هدفاً. وكلما رأينا لمعاً في ظلمة الليل فوق القرية الواقعة أمامنا، كان يأتيها الصوت متأخراً لنتأكد من نوع القذيفة.

في هذه الحرب الدائرة، لا يوجد طرف نحن معه، أو هو معنا. نحن المدنيين علينا أن نخضع لقوانين المنتصر، نأخذ ما يقدم لنا، ويعمل بعضنا معهم لأننا تحت وصايتهم. ومهما اختلفت الأسماء والألوان والعقيدة، تظل طريقة الحكم واحدة.

بحلول الصباح، كانت أصوات الانفجارات تهدأ، ليعود سكان المخيم إلى خيامهم. بعض الخيام أصابها شظايا الصواريخ. وكان بإمكاننا رؤية القناصة على أسطح المنازل في القرى الواقعة أمام المخيم، ورؤية "علم الكراد" الأصفر. لقد تمت السيطرة على القرى الثلاث التي تشكل نصف دائرة أمام المخيم.

وعند العصر، قاموا بإحراق إطارات فتصاعد الدخان كإعلان عن الانتصار، وهو أمر يقومون به مع كل سيطرة لهم على أي مكان جديد.

بعد يومين من هذه المعارك، وعند حلول المساء، هبت عاصفة رملية شديدة ومفزعة. كان الهواء شديداً، لدرجة أننا أمسكنا بأعمدة الخيمة المفروزة في الأرض، وحاولنا تثبيتها بدفعها عكس اتجاه الرياح. الرياح كانت تهز الخيام بعنف، وكثافة الغبار ازدادت لدرجة الاختناق، والكل كان يستغيث بلطف الله. ومع ازدياد كثافة الغبار، بدأنا نسمع أصوات الرصاص. كنا أصلاً متوجسين

من ذلك، فمن المعروف أن التنظيم يستغل هذه الظروف لمهاجم. استمرت العاصفة قرابة الساعة، على وقع أصوات الاشتباكات، وخوفنا من الطرفين المتحاربين. تشنبت أيدينا من محاولات تثبيت الخيمة، لكن العاصفة مرت وصمدت خيامنا.

عند الصباح، عرفنا أن التنظيم هاجم القرى الواقعة أمامنا، فرد الأكراد بالقصف العشوائي لانعدام الرؤية، فقتلوا خمسة مدنيين من سكان المخيم المجاور لهذه القرى، وهم من سكان هذه القرى. كان أحد القتلى طفلاً رضيعاً بين يدي أمه، قُتل هو وبقيت أمه حية.

اقتصاد الضرورة

وسط غضبات الطبيعة، وهياج المسلحين، أصبح المخيم أشبه بسجن، فقبل عدة أيام كان يمكن الذهاب باتجاه هذه القرى، وإلى البلدات الأبعد منها، أو حتى الذهاب باتجاه الرقة. الآن، لم يعد بالإمكان شراء الخبز، فأصبح تأمينه مهمة النساء والأطفال. كانوا يذهبون لجمع ما يمكن من الحطب أولاً، بينما تتولى نساء أكبر سنناً تحضير العجين من طحين قامت كل عائلة بشرائه تحسباً لمثل هذه الظروف. كان لدينا ما يكفي لأسبوعين على أبعد تقدير.

وفي جو خانق من الدخان والحر، كانت النساء تنجز هذه المهمة المتكررة بشكل يومي. مع ذلك، كانت مهمة تأمين الحطب الجزء الأصعب كونه يتطلب الابتعاد عن المخيم تحت تهديد القصف المفاجئ. أما نفاد كمية الطحين فكان هاجساً آخر لكنه مؤجل. مهمة الرجال كانت تأمين الكازبالمغامرة بالذهاب على طرق ترابية بعيدة عن الحواجز إلى المخيمات في قرى أبعد. بعض التجار كانوا يصطحبون بضاعتهم معهم في رحلة الهروب إلى المخيمات. وفي كل عودة مع بضائعهم، كان الغبار يغطيهم تماماً.

ماااااااا

في صباح آخر في المخيم، سمعنا صوت جريان ماء. وكنت قد سمعت الصوت ذاته أثناء نومي في ما يشبه الحلم. لكن عندما استيقظنا صباحاً عرفنا أنه ليس حلماً؛ لقد تدفق الماء في القناة المجاورة للخيمة. ماء بعد عشرة أيام من شرب مياه المستنقعات.

لقد أفرج الأكراد عن الماء، ماء وفير. صحيح أنه ليس صافياً بالكامل، ويمكن أن يعيدوا اعتقاله في أي لحظة، لكن الفرح به كان كيوم عيد. مرشاب بجانب خيمتنا، ولما رأى عمته بجانب القناة أشار إلى الخيمة وردد أغنية متهمكماً "يا مسعدة وبيتك على الشط"، فردت عليه ضاحكة بأغنية ثانية "لهجر كصرك واسكن بيت الشعر". وكنا نقول لو أن هذه المغنية سكنت في مثل هذا المخيم لما هجرت كوخه، وليس قصره. سبح الصغار والكبار، وكانت فرصة للجميع لأخذ حمام بالتناوب داخل الخيمة.

الكفيل

المخيم كان أشبه بقرية معزولة عن العالم الخارجي طوال أيام، حيث لم نر أحداً من الأكراد. لم يكن مخيمنا، وكل المخيمات التي على شاكلته، في حسابات أي منظمة، أو جهة إغاثية، فالناس هنا تعيش على عاتقها. بعض الرجال حصل على إذن خطي بعد تقديمه كفيلاً للأكراد ليعبر إلى "غرب القناة" المسيطر من قبل الأكراد منذ أشهر. كانوا يذهبون لجلب الطحين، أو مواد للأكل، ضمن زمن يحدده الحاجز الذي يعطي الإذن، وعلى الشخص أن يذهب ويعود قبل أن يتم تغيير الأشخاص الموجودين على الحاجز. وبهذه الطريقة، كنا نؤمن بعض المواد، بعد أن نفدت مؤونتنا. وبهذه الطريقة، تخلصنا من استغلال أصحاب المحلات الذين نقلوا بضاعتهم معهم، وباعوها بثلاثة أضعاف سعرها، أو أربعة أضعاف حتى. كان أي شخص يخرج من المخيم مجبراً على العودة إلى المخيم، وإلا سيرحل إلى مخيمات "عين عيسى". وسكان المخيم يريدون البقاء بجانب قريتهم أملاً في العودة سريعاً، وخوفاً على ممتلكاتهم التي بقيت هناك.

قربهم من ممتلكاتهم لم يحميهم من النهب، فقد جاء شخص كان قد ذهب إلى أقرب نقطة يمكنه الذهاب إليها وعاد يسب الأكراد "هذول جايين يحرروننا ولا ينهبونا". كان يتحدث عن سيارات خرجت من القرية محملة بمحتويات البيوت والدكاكين. لدى سماع هذا الخبر، بكت بعض النساء على "شقا العمر"، كما كنّ يرددن. بعض الرجال حاول الذهاب في اتجاه القرية، ظناً منهم أنها "ديموقراطية"، ويمكنهم التظاهر والاحتجاج ضد تصرفات قوات سوريا الديمقراطية، ولكنهم عادوا خائبين وخائفين.

”قوَص مدني يصطفل“

يبدو أن هذا التصرف أو محاولة الاحتجاج من قبل الأهالي استدعت رد فعل من الأكراد للإعلان أنهم القوة المسيطرة الجديدة، وكان يجب كبت محاولة هز الهيبة الأمنية. فعندما استيقظنا في صباح اليوم التالي، وكنا نعد الشاي، تراكض بعض الرجال صارخين ”الكراد.. الكراد“. خرجنا جميعاً من الخيام لننظر إلى الكائن الجديد الذي ظهر أخيراً أمامنا وجهاً لوجه. سيارة البيك أب كانت تتقدم بسرعة من أول الطريق باتجاه المخيم. قطعت المسافة بسرعة شقت فيها الهواء وأثارت عاصفة من الغبار لدى توقفها السريع والدرامي بحركة نصف دورانية هوليوودية. نزل منها خمسة مسلحين بسرعة وأيديهم على السلاح في حالة تأهب، تاركين أبواب السيارة الأربعة مفتوحة. تحدث قائدهم بلسان عربي ولكنة كردية، موجهاً كلامه لسكان المخيم ”الكل برا الخيم.. الكل صف هون“، مشيراً إلى جهة بعيدة عن الخيم. سألت من كان بجواري أن ينقل السؤال إليه: الأمر يشمل الرجال والنساء، أم الرجال فقط؟ فأجاب باللهجة الغاضبة نفسها ”الكل هون يصف رجال ونسوان“. بقيت أُمي جالسة بجوار الخيمة على كرسيها، وكأن الكلام لا يعنيتها، وتقدمت بعض النساء خطوتين أو ثلاثة من خيمتنا والخيمة المجاورة الواقعتين في أول المخيم. أما باقي النساء في الخيم التالية فركضن منذ قدوم المسلحين واختبأن في الجزء الأخير من المخيم. شكل الرجال صفّاً، فاقتربت من الصف لأسمع أو أميز ما يقول هذا الغاضب منا. قال: ”قوَص“. كان يوجه الحديث إلى المسلحين: ”خليك مستعد وإزا حدا قوَص إنت قوَص. قوَص مدني يصطفل“.

في هذه اللحظة، أيضاً، عاودني الشعور نفسه الذي عانيتُه عندما كان النظام يلقي براميل متفجرة بمظلات. دخلت في دوامة عدم الشعور بأي شيء، فالصاروخ حاسم وخاطف لا يترك لك فرصة الدخول في متاهات المشاعر، يأخذك من أول الخوف المميت إلى آخر الخوف المميت في لحظة، ويرميك بين ضفتين متشابهتين لا تملك الوقت لتعرف الفرق بينهما. أما هذا الشعور، أو ”اللاشعور“، فيفرغك من محاولات التفكير والفرار، لتتسمر في مكانك منتظراً لحظة انفجار العدم، هذا الشعور ”المتدلي المتأرجح“ كالبرميل، والصادم بهدوئه، يأخذك إلى نقطة معينة من حياتك يربطك بها، نقطة مركزة ووحيدة

تستغرق فيها وكأنها زمن مديد: "قوص مدنية يصطفل". ولدى سماعي هذه العبارة تذكرت فوراً مشاهد الإعدام الجماعية في الأفلام على يد المستعمرين. تابع الزعيم حديثه المعجّم "ادخل فتش خيم". تابع حديثه "وصلتنا أخبار إنوفي سلاح مخبا". دخل مسلحون وفتشوا على عجل، وداسوا أطراف الخيم للتأكد من ذلك. وخلال خمس دقائق، أنهموا عملية التفتيش، وعادوا إلى قائدهم "ما في شي". ركب المسلحون السيارة، بينما وجه قائدهم الحديث للنساء الموجودات مع حركة بيده ورأسه "لا تواخزونا اخواتي.. نعتزرك.. الزاهر مخربطين بالمخيم". وبعد أقل من عشر دقائق من ذهابهم، عادوا من أمام المخيم وفي صندوق السيارة ثلاثة شبان معصوبي الأعين، شعرهم ولحاهم الطويلة واضحة من بعيد.

قال أحدهم وهو يمر "هدول داعش كانوا متخبين بالمخيم"، فاحترنا في أمرهم، هل كانوا يبحثون عن سلاح، أم عن عناصر داعش، أم هي مجرد مسرحية بقصد إرهابنا.

إثر هذه الحادثة، وقبل أن يعود "الكراد" بهؤلاء المعتقلين من داعش، حسب روايتهم، حسم رجال المخيم أمرهم وقرروا حلق لحاهم وشعر رؤوسهم. قبل ذلك كانوا محتارين، هل يبقونها تحسباً لعودة داعش، أم يحلقونها خوفاً من الأكراد؟

وعندما مرت سيارة الأكراد من أمام المخيم وهي تحمل عناصر داعش، رأى عناصرها كيف بدأ الرجال بحلق لحاهم، فأشار أحدهم ماداً يده من باب السيارة "ليك.. ليك.. عم يحلقوا". قالها وهو يضحك، أو كما لو أنه يقول: انتصرونا.

فئة: إنسانيات.

تاريخ النشر: 21-8-2017

رابط المادة: معهد العالم للدراسات



alaalamorg



info@alaalam.org



alaalamorg